

«أشو مو على بعضك اليوم؟ شبيك؟ منو غثك؟»

«ماكو شي.»

لم يقتنع بجوابي: «لا، أكو شي.»

استدركتُ بعد برهة صمت:

«ماكو شي. بس حنة ما داتروح من بالي. اليوم ذكرى وفاتها.»  
التمع الحزن بعينه العسليتين وهز رأسه ببطء مرتين، كما كان يفعل كلما كان يطرب لأفراح الدنيا، أو يتأثر بأفراحها وقال:

«أوو، ألفت رحمة على روحها الطاهرة.»

«يرحم موتاك ويخليك الولد.»

«هاي شچم سنة صار؟ ستة مو؟»

«سبعة.»

«أبياه. والله عبالك ذاك اليوم.»

خيم صمت لم يتخلله سوى أزيز المولدة وصوت أوس يتجادل مع أمه في الغرفة الأخرى وهو يكرّر بصوت عال «ليش ماما؟»  
سألني سعدون:

«رايح للكنيسة اليوم؟»

«إي طبعاً.»

«والله لو مو عندي موعد الدكتور چان إجيت وياك. بس عندي  
الفحص الدوري ما أكدر أأجله.»

كان قد حضر قدّاس وجنازة حنة ورافق تابوتها إلى المقبرة وساعدني في إنزاله إلى القبر. جلس في الصف الأول في الكنيسة وقرأ الفاتحة مرتين على روح حنة ونظر إليه بعض الحضور باستغراب يومها. لم تكن تلك أول مرة يدخل كنيسة فيها في حياته، لأنه حضر عند وفاة ميخائيل وحبّية. تهدّج صوتي قليلاً:

«تسلم عيوني . آني أشعللها شمعة بمكانك .»  
«أي، الله يخليك . والله مثل أختي . الله يرحمها .»  
بعد فاصل صمت آخر قلت له :  
«يا به يگلك آني عايش بالماضي .»  
«منو يگول هيچي؟»  
«هاي مها، گرايبي اللي گاغدة عندي بالطابق الفوگ هي  
وزوجها .»

«إي مو چذب هالحچي . تره إحنا أنتيكات . هذا اللوتي أوس  
هذاك اليوم يگوللي : جِدو إنت شگد قديم . تصوّر!»  
ضحكتُ وأخبرته عن حلم الليلة الماضية :  
«تدري البارحة حلمتُ البيت صاير متحف ، وآني داأشتغل دليل  
سياحي آخذ الناس عالغُرف وأفرجهم .»  
ضحك من قلبه وقال :

«هاي قويّة . إذا هيچي آني أجي أوگف بالباب وأكُص بطاقات .  
زين إلويش گالتلك هالحچي؟»  
«چنّا دانحچي عالطائفية وعلى وضعنا، إحنا المسيحيين، وأشو  
عِلگت . صار جدال حامي فرد مرّة .»

«إي، شكو بيها؟ الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية .»  
«إي، بس اختلاف عميق . هيّ متشائمة . تُگول ماكو أمل ومالنا  
عيشة بهالبلد . بس تريد تخلص دراستها وتطلع هيّ وزوجها .»  
«حقها . ليش تلومها، حالها مثل حال هالآلاف المؤلفة اللي  
طلعت . خليهم يطلعون يجربون . همّ بيهم حيل والعمر گدامهم . مو  
هيّ هاي اللي سقطت البيچر؟»  
«إي هيّ .»

«إي خطيّة، هاي غلبها محروگ. تره گلب الأم غير شيكل .  
بعدين هاي ثكلي بابا.»

شدد سعدون على مخارج الحروف وهو يقول:  
«ثكلي» ثكلي يا نديمي . ما سامع الثكلي شتگول لابنها؟»  
ثم فتح راحة يده اليمنى ورفعها قليلاً وأغمض عينيه . كانت هذه  
الحركة إيذاناً بأن الشعر سيحضر . قال بصوت أعلى قليلاً:

«يا قرحة القلب والأحشاء والكبدِ

يا ليت أمك لم تحبل ولم تلدِ

لما رأيتك قد أدرجت في كفنِ

مطيباً للمنايا آخر الأبدِ»

تأخر البيت الثالث، فسأل نفسه: «شلون بعدين؟» سكت لشوان  
ثم أعاد البيت الثاني مرة أخرى ليساعده في التذكّر . وضع يده على  
جبينه ثم عثر على ما كان يبحث عنه، فرفعها من جديد:  
«إي إي . . .

أيقنتُ بعدك أتّي غير باقية

وكيف يبقى ذراعٌ زال عن عَضِدِ؟»

كان رد فعلي التلقائي على الجواهر التي كان يلقيها على مسامعي  
دائماً «هممم» عميقة أتبعها أحياناً بـ«حلو.» أعجبتني الأبيات كثيراً  
وتعجّبت من ذاكرة سعدون التي لم تصدأ كثيراً بعد كل هذه  
السنوات . سألته عن القائل كما كنت عادة أفعل ، فقال إنه مجهول .

«فد وحدة اعرابية مكرودة . أم أنجوى غلبها بزمن الجاهلية .»

«أدري بس هاي أكيد إنها چان ولدان وربته وكبّر گدام عينها .»

«ما يخالف، مع ذلك . مو قليلة يا نديمي . لعد ليش أكو تعبير

«فلذة كبدها.» بعدين مو كل الناس متفائلة مثلك . ما تگلّي منين

تجيب التفاؤل مالك هذا كله؟ شراح يخلصنا من هذولة السرسرية  
المُعَفنين والحرامية وأهل العمائم؟ راح تصير سنة، سنة كاملة،  
وحكومة ما يگذرون يشكلون!»

«العمائم تنگلب. بس هي، مها، مامصدگة إنه چان أكو وكت  
بلا طائفية.»

تنهد سعدون وقال:

«لمن تنگلب العمائم إحنا يمكن نكون شابعين موت. هاي إذا  
انگلبت. ضاع البلد بين إيران والعربان والأمريكان. والله ما أدري  
يعني چانت كل هالطائفية موجودة وإحنا ما حاسين بيها؟ معقول؟  
وين چانت خاتلة؟ لوهاي صارت كلها مؤخرأ ومن ورا التدخلات  
والحقد علينا وهذوله اللي جوّي من برآ وجابو وصخهم وياهم؟ هاي  
سندس گدامك، مو متزوجة شيعي؟ أشو ما چانت مشكلة قبل ١٥  
سنة؟»

تذكرت النكتة التي حكاها لي لؤي قبل أسبوع عن الطائفية فقلت  
له:

«إسمع هاي راح تعجبك. يگلك أكو ثلاثة عراقيين، سني  
وشيعي ومسيحي. وگع بيدهم مصباح علاء الدين السحري. طلع  
الجني، فسأل الشيعي گاله: شتريد، أطلب وتمنى. فگاله: إمحيلي  
السنة ما تبقي ولا واحد. الجني گاله: صار، تتدلل. إجا عالسني  
گاله: أطلب إنت. فالسني گاله: أكتل الشيعة كلهم، لا تبقي ولا  
واحد منهم يتنفس. فگاله صار تتدلل. أجا عالمسيحي، گاله: إنت  
شينو أمنيتك. المسيحي فكر شوية وبعدين گاله: شوف طلبات  
الجماعة بالأول وبعدين تعال علي»

ضحكنا حتى أدمعت عيوننا وقال: «والله هذا المسيحي لوتي.»

ليش يضيّع الأمانة ماله . خرا بعرضك على هالنكتة .  
غيرت بعدها دفعة الحديث إلى لاعبنا المفضل ، فلاح حسن ،  
الذي كان قد عاد إلى العراق ليتسلم رئاسة الهيئة الإدارية لنادي  
الزوراء لينقذه من أزماته . فسألته إن كان سمع بخبر نيته الترشح  
لرئاسة الاتحاد؟  
« لا بالله؟ »

« إي . أول البارحة قرئت الخبر بالجريدة . »  
« والله ماكو أحسن من أبو تيسير . يا ريت . بس شنو علاقة فلاح  
حسن بالطائفية وبموضوع گراييك؟ »  
« ماكو علاقة . بس خلص . سدينا الملف . أكيد هي راح تعتذر  
مني اليوم . هي القصة صارت البارحة بالليل . »  
« الله كريم . »

تشعب الحديث لساعة أخرى وابتعد عن موضوع مها ، لكنه عاد  
في نهاية الأمر ، بطريقة غير مباشرة ، عندما تطرقنا إلى أزمة تشكيل  
الحكومة والاحتقان الطائفي في البلد ونحن نتناول الغداء اللذيذ الذي  
أعدته ابنته . رز مع مرق البامياء الذي كان مليئاً بفصوص الثوم الكبيرة  
التي أحبها ، مع سلطة وخبز تنور من المعخبز القريب من بيتهم . قال  
سعدون وهو يصب لي الماء :

« تدري إشغال أبو فرات على موضوع الطائفية؟ »  
« لا ، شغال؟ »

« أي طرطرا تطرطري ، تقدّمي تأخري ، تشييعي تسني ، تهودي  
تنصري ، تکردي تعربي . »  
« إي ، هاي گالها من زمان؟ هل هذا معناه الطائفية صدگ  
موجودة من زمان؟ »

«لا، يابه، دائماً چان أكو سنّة وشيعة ومسيح وأسلام، بس ما  
چانت كَتل وسحل وميليشيات ومفخّخات.»  
«الله كريم.»

ظل إيقاع الأبيات يرن في أذني وأنا أمشي بعد أن ودعته: أي  
طرطرا تطرطري...